أهمية العناية بالبعد الروحي في مناهج التربية الإسلامية

للدكتور محمد فاروق النبهان(*)

لابد قبل البدء بإعداد المناهج التربوية من تحديد الغاية المرجوه التي يراد تحقيقها والوصول إليها، ومن الطبيعي أن تتفق الغايات والأهداف في ضرورة تكوين المواطن الصالح القادر على التكيف مع المجتمع، إلا أنها قد تختلف في مفهوم ذلك الصلاح، فما يعتبر صلاحا في مجتمع قد لا يكون كذلك في مجتمع آخر.

وانطلاقا من هذا الهدف يجدر بنا أن نضع صيغة سليمة لتصور تربوي يحقق الأهداف التي تريدها، وإذا لم نتفق على الأهداف المرجوة فمن الصعب علينا أن نضع المنهج التربوي الملائم.

والمنهج التربوي وليد رؤية واقعية، وليس مجرد تصور خيالي، ومن الصعب أن نقتبس منهجا تربويا مغايرا للقيم التي تريدها مجتمعا، والمجتمعات الإسلامية تحتاج لمناهج تربوية تحترم خصوصيات هذه المجتمعات وتراعي قيمها الأخلاقية، وتغذي الجوانب الإيجابية في تكوينها، وتنمي أسس العقيدة الإسلامية لكي تكون عامل توازن واستقرار وطمأنينة في سلوكية المواطن.

ويعتبر البعد الروحي من أبرز العوامل والمؤثرات في التربية الإسلامية، ويجب أن يعتبر هذا الجانب الركن الأهم في التربية والتوجيه

(*) مدير دار الحديث الحسنية.

والتمكين، لأنه يثير في النفس مشاعر وجدانية ويوقظ في الشخصية الإنسانية معاني سامية.

والتربية الروحية تخاطب القوى الكامنة في النفس وتغذيها بطاقات وقدرات لا حدود لها، والنفس بطبعتها تستجيب لهذا الخطاب وتنصت إليه، وتتأثر به.

والاهتمام بالبعد الروحي في التربية الإسلامية لا يعني تجاهل البعد الثقافي والعلمي الذي يعتبر ضروريا لتكوين رصيد من المعرفة في قضايا الفكر والثقافة فالثقافة الإسلامية عامة وشاملة، وتتضمن أنواعا من المعارف والأفكار، إلا أن الجانب الروحي من هذه الثقافة ينير الشخصية الإنسانية، ويجعلها أكثر إشراقا وصفاء في نظرتها للكون والحياة.

ومهمة التربية إيقاظ القوى الكامنة في النفس لكي تؤدي دورها في تكوين قابليات سلوكية سليمة، ولا بد من الاهتمام بدراسة النفس الإنسانية ومعرفة طبيعة غرائزها وميولها واستعداداتها، والنفس عالم ملئ بالأسرار، ولا يمكن فهم طبيعة السلوك الإنساني إلا بعد معرفة أسرار ذلك التكوين النفسي الذي تحكمه قدرات غريزية، تقود تحت تأثيرها لأنواع من السلوك ملائمة لتلك الغرائز.

والنفس في القوة المحركة للسلوك الإنساني لأنها مواطن الغريزة والغريزة قوة عمياء ملحة تدفع الحواس للإنقياد لها بصورة مطلقة، ومن الطبيعي أن يقع التجاذب والتدافع والتغالب بين القوة النفسية الطاغية والقوة العقلية ذات الطبيعة التأملية، ولا بد من أن تؤدي التربية إلى تنمية القدرات العقلية لكي تغالب القدرات الغريزية، ولكي يكون السلوك الإنساني خاضعا لمعيار المسئولية، ولا يستطيع العقل أن يحكم قبضته على الغرائز إلا بعد

مجاهدات قاسية يتمكن العقل فيها من أن يسمك بزمام الأمر ويتحكم في الحواس البشرية، لكى تكون منقادة له.

خصوصية النفس الإنسانية:

النفس الإنسانية في نظر ابن مسكويه جوهر بسيط غير محسوس بشئ من الحواس، وتختلف النفس عن الجسم في قابلية النفس لصور الأشياء المتناقضة والمتعارضة، ولا تقبل الأجسام ذلك، إلا بعد زوال صورتها الأولى، ولهذا فإن النفوس تقبل التربية والتغيير والتبديل والإصلاح والتكوين، ولا تقبل الأجسام أي تغيير في شكلها إلا بعد زوال الصورة الأولى لها، ومن هذ المنطلق انطلقت النظريات التربوية التى تنادى بإصلاح النفوس وتربيتها إنطلاقا من قابلية تلك النفوس لأي تغيير، نحو الأفضل أو نحو الأسوأ فالقابلية موجودة، والمربى هو العامل الأهم في إحداث التغيير المطلوب، وعليه أن يفهم طابع النفس البشرية أولاً وأن يختار الأسلوب الأنفع لإصلاحها ثانياً.

والنفس بحكم تكوينها الغريزى لا تستطيع فهم الأشياء إلا في نطاق ضيق، وبالمقدار الذى تدركه الغرائز، وهنا يبرز دور العقل كقوة تمييز وإدراك قادر على فهم أسباب الاتفاق وأسباب الاختلاف بين الأشياء المتغايرة، والعقل يحتاج إلى تنمية قدراته في المعرفة عن طريق المعارف المستفادة من الملاحظة والتلقين لكي يتمكن من اختيار القرار العقلي الذى يواجه به قوى النفس الغريزية.

ولا تستطيع النفس أن ترتقى بقدراتها الذاتية إلا عن طريق التحكم في تلك القدرات الغريزية، في حالتى الشهوة والغضب، وهما الغريزتان الأساسيتان اللتان تملكهما النفس، فالغريزة الشهوانية هى قوة تزويد البدن بـ

يحتاج إليه من مطالب ضرورية لنموه واستمراره، والغريزة العصبية هي قوة حامية تستخدم لمواجهة الأخطار المتوقعة أو الواقعة على البدن، والغرائز الأخرى مرتبطة بإحدى هاتين الغريزتين.

وغاية التربية التحكم في هاتين الغريزتين المندفعتين، لكي تكونا في قبضة العقل وتحت سيطرته، ولكي تكونا أقرب للاعتدال في اختياراتهما واندفاعاتهما، فيؤديان دورهما في تزويد الجسم مما يحتاج إليه، وحمايته من الأخطار التي تهدد وجوده وأمنه.

ولا يجوز للتربية أن تتجاهل مطالب النفس، لأن الغريزة قوة ضرورية لحماية البدن، وعندما يقع تجاهل هذه المطالب فمن المتوقع أن تصاب الشخصية بخمود في طبيعتها البشرية، وهذا الخمود قد يؤدي إلى إلغاء القدرات النفسية، فتصاب النفس بالضعف والهزال والإنهيار.

والنفس البشرية أقرب إلى الفضائل وتميل بحكم الفطرة إلى الأخذ بما تفرضه الفضيلة من أنواع السلوك، لأن الفطرة الإنسانية خلقت نقية صافية كالثوب الأبيض، ثم تصاب بالتلوث بعد ذلك بتأثير عوامل خارجية ومؤثرات بيئية. ومن الصعب التسليم بالنظرية التربوية التي تقرر أن بعض النفوس خلقت مهيئة للإنحراف والجريمة، فالنفس البشرية تملك قدرات وقابليات إلى الخير أو إلى الشر، إلى الفضائل أو إلى الرذائل بدرجات متساوية ثم تسهم التربية في تنمية قابليات الخير أو الشر، إلى أن تصبح تلك القابليات راسخة في النفس ثابتة قوية الجذور.

وإذا افترضنا أن بعض النفوس مهيأة للرذيلة والجريمة بحكم تكوينها الجسدي فهذا الافتراض يلغي أهمية التربية كعامل مؤثر في تكوين القابليات السلوكية.

ويؤكد الغزالي، في كتابه «إحياء علوم الدين» على أن النفس البشرية إذا كانت تستلذ الباطل بحكم العادة وتقبل إليه، فإنها تستلذ الحق من باب أولى لو ردت إليه، والتزمت المواظبة عليه، لأن الطبع يميل إلى الفضائل أكثر من ميله إلى الرذائل، وأن النفس بطبيعتها تأنف من الرذائل لأنها تتنافى مع الطبع الإنساني.

أهمية المجاهدة في تربية النفوس:

تكمن مهمة المربي في البيت والمدرسة في تمكين الأطفال من السيطرة على غرائزهم عن طريق تنمية القدرات الذاتية التي تسهم في تعديل السلوك الإنساني، والمجاهدة هي أداة الإنسان للتحكم في غرائزه، ويختلف مفهوم المجاهدة لدى الأطفال عن مفهومها لدى الكبار، ***والمجاهدة هي تنمية قوة المناعة لدى الطفل وتسليط هذه القوة على قوة الغريزة، بحيث يتمكن الطفل من التحكم في سلوكه في لحظات الضعف الإنساني أمام قوة الاندفاع الغريزي...***

وقوة المناعة قد تكون بالنسبة للأطفال قوة خارجية رادعة، كدور المربي في حالات التخويف والتهديد والحرمان، إلا أنها يجب أن تكون قوة ذاتية، وتعتبر التربية الدينية هي القوة القادرة على لجم هذه القوة الغريزية، ومن اليسير علينا أن نلاحظ أثر هذه التربية في السلوك الإنساني من خلال تتبعنا لسلوكيات بعض الطلاب في المدارس، وسوف نجد أن الدين هو العامل الأقوى في تنمية قوة المناعة والمدافعة في وجه القوة الغريزية.

ولا بد من مجاهدة النفس، ***والخطوة الأولى في المجاهدة تتمثل في حمل النفس على الإلتزام بالفضيلة، وتكلف ذلك***، فالمجاهدة تفترض وجود استعداد غريزي، ولولا هذا الاستعداد لما كانت هناك مجاهدة.

وكلمة المجاهدة تفترض بذل جهد وجهاد في سبيل التحكم في السلوك ويقوم المربى بتوجيه الطفل إلى مواطن الضعف في سلوكه، فينمى قدراته الذاتية لكي يتمكن ذلك الطفل من التحكم في قرراته.

وتطلق لفظة، «*رياضة النفوس*»، على المجاهدة، لأن الرياضة غايتها تنمية العضلات الضعيفة وإزالة الشحوم المتراكمة لكي يستقيم أمر البدن، ويكون قادرا على النمو السليم والصمود في وجه الأخطار التى تهدده، وأحيانا تستعمل لفظة تزكية النفوس أو طهارة النفوس، وكما أن الأبدان تحتاج إلى طهارة بالماء لإزالة النجاسات فإن النفوس تحتاج إلى طهارة لإزالة الصفات المذمومة، وطهارة النفوس تتم عن طريق تنمية القوانين، العقلية والروحية، فالقوة العقلية تقنع والقوة الروحية تنمى الإرادة.

مقومات التربية الروحية:

تحتاج التربية الروحية إلى مقومات أساسية، ولا يمكن أن تحقق هذا التربية أهدافها إلا إذا توافرت الشروط الموضوعية لهذه التربية، وهي ليست مجرد مقررات تدرس *وإنما هى تفاعل عقلى ووجدانى بين الخصوصية الإنسانية والتوجيه الثقافى، بحيث يتوجه الخطاب إلى القلوب بصدق وتلقائية من غير تكلف*.

ومن اليسير علينا أن نلاحظ أن المادة الثقافية ليست قاصرة في مناهجنا التربوية في المدارس والمعاهد، وقد تكون رائدة من حيث مقدارها عن الحد المطلوب، إلا أننا نلاحظ أن أثرها في النفس يكاد يكون معدوما والسبب في ذلك أن هذه المادة الثقافية ليست ملائمة لعقول الناشئة، ولا يختلف أسلوب تلقينها عن آية مادة علمية أخرى، وتفقد بذلك أهم خصوصية لها وهى قدراتها على التفاعل والتأثير.

والتربية الروحية لا تعني تجاهل الخطاب العقلي وإنكار دوره في التأثير، فالعقل هو الأداء الأولى للتمييز والإدراك، وتفضل إدراكه تتسع دائرة المعارف الإنسانية ويستفيد الإنسان من تجاربه المتجددة، ولابد من أن تكون التنمية العقلية متوافقة مع التربية الروحية، لكي يستقيم أمر الفهم والإدراك وتبنى القابليات الروحية على أرضية ثابتة من الوعي والإدراك والمعرفة.

ومن أبرز مقومات التربية الروحية ما يلي:

أولاً: تنمية القدرة العقلية على اساس التنسيق بين هذه القدرة والقدرات الأخرى للإنسان التي لا يمكن تجاهلها، والقوة العقلية تحتاج إلى تهذيبها والسيطرة عليها، لكي تكون أداة أرقي الإنسان والنهوض بأمره، وإذا استخدمت القوة العقلية كقوة مسيطرة قادت صاحبها إلى استخدام هذه القدرة فيما يسئ لإنسانيته، فالمكر والدهاء لا يعتبران من الفضائل الأخلاقية، لأن القوة العقلية ليست منضبطة ومنفادة لقيم الفضيلة، وهنا يبرز دور التربية الروحية للتخفيف من الآثار السلبية لاستعمال القوى الإنسانية بحيث تبرز الحكمة كنتاج لتفاعل بين القوة العقلية والضوابط الأخلاقية والاجتماعية. وتكمن الحكمة في الاعتدال والوسطية في استخدام القوة العقلية.

ثانياً: السيطرة على الغرائز الفطرية: وهذه خطوة ضرورية وحتمية ولا يمكن الاستغناء عنها في أي جهد تربوى، فالغرائز قوة ملحة ومندفعة ومؤثرة وهي قادرة على السيطرة على القوة العقلية، ومن الطبيعي أن الحواس البشرية لا تستطيع مقاومة الإلحاح الغريزى في مجال السلوك، فتنقاد النفوس صاغرة لتلبية المتطلبات الغريزية في مجال الشهوات، وفي لحظات

الغضب، وأبرز مهمة تواجه المربى في البيت والمدرسة تتمثل في قدرته على تنمية قوة المقاومة في الشخصية الإنسانية، في مواجهة المتطلبات الغريزية.

وأداة السيطرة على الغرائز تتمثل في ثلاثة عوامل:

العامل الأول: تسليط القوة العقلية على القوة الغريزية، لكى يتمكن العقل من السيطرة على الحواس التى تعتبر كالجند والرعية التى تنقاد بسهولة ويسير للقوه المسيطرة فإن كانت القوه الغريزية هى المسيطرة انقادت الحواس لها صاغرة، واذا استطاع العقل البشرى أن يحكم سيطرته على الغريزة انصاعت الحواس له وانقادت لأوامره، فلا ينطق اللسان إلا بما يؤمر به، ولا تتحرك البد إلا بما تؤمر به، وهكذا تقع السيطرة على الحواس التى ترتبط بها السلوكية الإنسانية.

العامل الثانى: تنمية الوازع الدينى كعامل مؤثر فى السيطرة على الغرائز وفي تنمية القوى المواجهة لتلك الغرائز، فالعقل قد يضعف في لحظات المداهنة والمغالبة، وقد يستجيب لنداء الغريزة وقد يتعاون معها ويتكاتف بحيث ينقاد العقل للقوة الغريزية، وبخاصة بالنسبة للأطفال والمراهقين الذين مازالت إدراكاتهم العقلية قاصرة عن الفهم والتأمل ويبرز الوازع الدينى كمؤثر شديد الأهلية وكرادع قوى الأثر في ضبط السلوكية، وبخاصة وأن النفس بطبيعتها تأنف من الإنحراف في بداية الأمر ثم تنقاد له وتستسلم وتألف ما كانت ترفضه من أنواع السلوكيات المذمومة.

العامل الثالث: تنمية القوة القلبية، والمراد بالقلب هو الخصوصية الإنسانية ولذلك جاءت لفظ القلب في القرآن في موطن المخاطب والمعاقب والمحاسب والمكلف وهو أداة الفهم، والفهم غاية أوسع من مجرد الإدراك والتمييز، فالعقل يميز ويعقل الأشياء بطريقة رياضية، أما القلب فإنه اداة المعرفة الحقة، فإذا قام القلب بوظيفته في مجال المعرفة والفهم فهو قلب سليم البنية صحيح الفطرة سديد الرؤية وإذا لم يقم بوظيفته تلك فهو قلب مريض.

وقسم الغزالي القلوب في مجال الثبات على الخير والشر والتردد بينهما إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: القلب المعمر بالتقوى وهو القلب الذى زكا بالرياضة وطهر عن خبائث الأخلاق، وهذا القلب تتقدح فيه خواطر الخير، فيتصرف العقل إلى التفكر فيما خطر له ليعرف دقائق الخير، وهو القلب الذى وردت الإشاره إليه في قوله تعالى: ﴿وأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى﴾(1) وهذا القلب يطمئن بذكر الله، ﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾(2).

القسم الثاني: القلب المخذول والمشحون بالهوى، المدنس بالأخلاق المذمومة وهذا القلب تتقدح فيه خواطر الهوى والشر، ويقف العقل فيه في خدمة الهوى لأنه يألف ذلك ويأنس بما تميل إليه النفس، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا﴾(3).

(1) سورة الليل الآية ٦

(2) سورة الرعد الآية ٢٨.

(3) سورة الفرقان، الآية ٤٣

القسم الثالث: القلب المتردد بين الخير والشر، وهذا القلب تأتيه خواطر الخير فتدعوه إلى سبيل الرشاد والفضيلة والاستقامة ثم تنبعث النفس بخواطر الشر فتدافع خواطر الخير وتحسن له طريق الرذيلة والأهواء والشهوات، ويقع التدافع والتغالب بين قوتى الخير والشر، وأخيرا يميل القلب إلى جنسه، ويستقر أمره هناك. حيث الخير أو الشر.

وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون﴾ (٤).

وتتمثل مهمة المربى في معرفة ميول النفس وقابليات القلب لكى يغذى جانب الخير وينميه إلى أن تطمئن النفوس بما تميل إليه القلوب من حب الفضائل الأخلاقية.

ولا يجوز للمناهج التربوية السليمة أن تغفل هذه الطاقات الكامنة في النفس الإنسانية، ويجب أن توجه إليها الاهتمام بالتكوين والتعديل والإصلاح، إلى أن يقع التوافق والإنسجام بين الاستعداد الذاتي والأهداف التربوية المرجوة، بطريقة تلقائية بحيث تندفع النفس في طريق الفضيلة مقتنعة بهذا الطريق مغالية كل الأهواء والميول المنافية للاستقامة.

ويجب التأكيد على أهمية البعد الروحي في التربية الدينية، وهى أكثر أهمية من التركيز على حشو الكتب المدرسية بالمعلومات التى قد لا يحتاج إليها الطالب في حياته العملية، وعندما يتم التركيز على الطهارات والعبادات

---

(٤) سورة الأنعام، الآية ١٢٥.

وأصول المعاملات فيجب أن يتم ذلك في إطار التعريف بالأخلاقية الإسلامية في مجال العادات والعبادات والمعاملات.

والمنهج السليم هو المنهج الذى يحقق الغاية المرجوة منه، في تكوين شخصية متوازنة قادرة على فهم قيم الفضيلة في السلوك الاجتماعى، في ظل احترام إنسانية الإنسان وكرامته، ومن الطبيعى إن يكون المنهج التربوى ملائما لزمانه ومكانه، وليست هناك صيغة واحدة لتصور منهج تربوى ملائم وليس هناك ما يمنع من تطوير المناهج وتجديدها، لكي تكون محققة للغاية المرجوة منها.

وأهم ما يجب أن يحرص عليه المنهج التربوى الإسلامي أن يكون معبرا عن القيم الاجتماعية والأخلاقية للتربية الإسلامية، وأن يقع التركيز على البعد الاجتماعى للتربية الإسلامية من حيث التأكد على أهمية الكرامة الإنسانية في مجال الحريات العامة ومحاربة جميع صور الظلم، وأن الإسلام يدعو إلى تحرير الإنسان من جميع أنواع العبوديات المذلة التي تتجاهل حقوق الإنسان في الكرامة.

أهمية شخصية المربى:

لسنا نبالغ إذا قلنا بأن الركن الأهم في المهمة التربوية هو شخصية المربى، سواء كان أبا أو أستاذا، فالتربية قضية معقدة، والمربى هو أداة هذه المهمة والأداة في العنصر الأكثر أهمية في نجاح المهمة التربوية.

وتجب العناية بتكوين شخصية المربي وإعداد مؤسسات تربوية لإعداد المربين والعناية بأمرهم، وتزويدهم بالكفاءات والمهارات الشخصية والفكرية والسلوكية التي تؤهلهم لأداء مهمتهم التربوية.

والمربي الكفء لا يحتاج إلى منهج يقيده، لأنه هو الذى يختار المنهج الملائم لكل مرحلة ولكل موقف، وتتعدد الأساليب التربوية وتتغير، لأن الغاية المرجوة واحدة، فمن استطاع أن يحدث التغيير المطلوب في سلوكيات طلابه نحو الأفضل فهو المربى الكفء الذى يملك مؤهلات التربية، ومن فشل في تحقيق الغاية المرجوة فلا يمكن الثقة بجهوده.

والتربية صناعة وهي الصناعة الأكثر صعوبة لأنها تتعامل مع نفسيات مختلفة، ولابد لها من دراسة موضوعية لتكوين رواد الصناعة التربوية.

وقد أستعمل ابن مسكويه في كتابه «تهذيب الأخلاق» لفظة صناعة في مجال حديثه عن الأخلاق، لأن كلمة الصناعة تعبر عن أهمية التربية في تكوين خلق الاستقامة والنفس لا ترى الجمال في الأخلاق مالم تتعلم مبادئ هذه الصناعة وتلم بحفاياها وعندئذ تكتشف جوانب التميز والتفوق في النفس الإنسانية.

ويؤكد «ابن مسكويه» أن نقطة البداية في معرفة هذه الصناعة تكمن في "معرفة النفس"

- ماهى..

- وأي شيء هى..

- ولأى شيء أوجدت فينا..

وما قواها وما ملكاتها..

ومن الطبيعى أن يكون المربى هو أداة هذه الصناعة، لأنه المشرف والمنفذ لهذه المهمة التربوية، ومعرفة النفس سلاح ضرورى له وعليه أن يسحسن فهم أسلحته لكي يتمكن من توجيه خطابه التربوى بطريقة مقبولة ومؤثرة.

وأهم ما يميز الإنسان عن بقية الكائنات الحية أن هذا الإنسان مزود بملكات ذاتية قادرة على التمييز والاختيار، وهذه الخصوصية تجعل مهمة المربي أيسر إذا عرف كيف يوجه جهده إلى مواطن الاستجابة في تلك النفس.

وأهم هذه الملكات العقل والإرادة ولا يمكن للعقل أن يؤدى مهمته في مقاومة الأهواء والميول إلا بسلاح الإرادة والإرادة هي أداة العقل وسلاحه، فإذا ضعفت الإرادة أصبح العقل عاجزا عن التعبير عن قناعاتهم في مجال السلوك.

والمربي هو قدوة وهو صاحب رسالة، ويجب أن يؤمن برسالته ويدعو لها بصدق من خلال أقواله وأفعاله، لكي يكون النموذج الحي للمنهج الذى يدعو إليه، فإذا افتقد المربي صفة الصدق، ولم يكن القدوة الصالحة فمن العبث أن تؤدى التربية أهدافها المرجوة.

وأخيراً فإن إصلاح مناهج التربية الإسلامية يعتبر ضرورة ملحة، لأن التربية الإسلاميةهي أداة تكوين الشخصية سواء في سلوكها العام أو في مواقفها الثقافية والوطنية، وإذا وقع الخلل في هذه الشخصية فمن الطبيعي أن يفرز هذا الخلل آثاره السلبية في المجتمع ولعل بعض ما تراه في مجتمعاتنا اليوم هو نتاج هذا القصور في مناهجنا التربوية.